المحاضرة الخامسة:الرواية المغاربية ما بعد الكولونيالية:الأنا،الآخر،الهوية.

1-ما بعد الكولونيالية وخطاب التحرر:

تعد دراسات ما بعد الكولونيالية من الخطابات المعرفية التي فرضت نفسها وبقوة على ساحة الدراسات الثقافية المعاصرة،وهي حتمية فرضتها طبيعة العلاقة بين الشرق والغرب التي وصلت إلى منتهاها؛بعد أن روّج الغرب لادعاء أنه معيار للفضائل المختلفة العلمية والفلسفية وغيرها وأنه معقل التفكير ومركزه وبذلك صارت الرؤية الغربية للآخر هي النموذج والمقياس،وأمام هذا الاستحواذ وهذه السيطرة الغربية ومن منطلق أن لكل فعل ردة فعل لم تبق تلك الشعوب المستعمرة مكتوفة الأيدي؛بل سعت جاهدة إلى الفكاك من قبضة الاستعمار بشتى الطرق العسكرية منها والسياسية إلى جانب الحركات الفكرية الثقافية التي قادها نقاد ومفكرون من العالم المستعمَر أخذت على عاتقها مهمة نقد الخطاب الاستعماري لاستعادة ذواتها المفقودة ولملمة شتاتها،فبدأ يتآكل الخطاب الاستعماري مع انتشار هذه الحركات الرافعة لشعار التحرر في أرجاء البلدان المستعمرة.

والخطاب ما بعد الكولونيالي هو مظهر آخر من مظاهر ما بعد الحداثة سعى إلى نقد الفرضيات التي قامت عليها المركزية الغربية،وفضح زيف المقولات التي شُيّد على صرحها العقل الأوروبي وكشف تجلياتها الامبريالية فهو خطاب نقدي نشأ في عدد من مناطق العالم المستعمَر سابقا على شكل حركات وتوجهات فكرية وأخرى بحثية تستهدف نهضة الثقافات المحلية والقومية،بالإضافة إلى تعرية الخطاب الاستعماري وحمولته الثقافية والمعرفية،ويقوم هذا الخطاب على فكرة كون لمستعمر حدد ماهية المستعمَر وفق منظومته الفكرية المحققة لمصالحه فيعرفه بأنه غير حداثي وبربري وغير ديمقراطي...

لذلك كانت حاجة الشعوب الخارجة عن المنظومة المركزية الغربية إلى خطاب يفكك كل أشكال الهيمنة والخضوع والذي تفاقمت تبعاته حين عززت الامبريالية الغربية من وجودها

العسكري ببسط السيطرة ثقافيا وعقديا على تلك الشعوب المضطهدة في بلدان العالم الثالث،فشكل ذلك اللبنات الأولى لميلاد وعي مضاد وقف في وجه هذا الجموح وقاومه بكل أشكاله ليترسم بذلك ميلاد هذا الحقل المعرفي مع جماعة من المفكرين وضعوا أسسه وخططوا طريقه.

2-المرتكزات الفكرية للنظرية ما بعد الكولونيالية:

تطرح النظرية ما بعد الكولونيالية مجموعة من القضايا الشائكة للدرس والتفكيك والتقويض،كجدلية الأنا والآخر،ثنائية الشرق والغرب،علاقة المركز بالهامش،علاقة المستعمَر بالمستعمر،الزنوجة،الهيمنة،الاستشراق،الهجنة،فكرة النقاء العرقي...فهذه النظرية تبنى على مجموعة من الأسس الفكرية والمنهجية يمكن حصرها في العناصر التالية:

•**فهم ثنائية الشرق والغرب:**تحاول نظرية ما بعد الاستعمار فهم الشرق والغرب فهما حقيقيا وذلك برصد العلاقات التفاعلية التي توجد بينهما سواء أكانت تلك العلاقات إيجابية مبنية على التسامح والتفاهم والتعايش،أم مبنية على العدوان والصراع الجدلي والصدام الحضاري،كما يذهب إلى ذلك صموئيل هنتنغتون في كتابه **صراع الحضارات.**

•**مواجهة التغريب:**استهدفت نظرية ما بعد الاستعمار محاربة سياسة التغريب و التدجين والاستعلاء التي كان ينهجها الغرب في التعامل مع الشرق ومن ثم شمّر مثقفو نظرية ما بعد الاستعمار عن سواعدهم لفضح الهيمنة الغربية وتعرية مرتكزاتها السياسية والإيديولوجية،مع تبيان نواياها الاستعمارية القريبة والبعيدة،والتشديد على جشعها المادي لاستنزاف خيرات الشعوب المقابلة الأخرى،لذا يتسم الخطاب الثقافي الغربي بنزعة التمركز وتأكيد خاصيات:التفوق والتمدن والتحضر،وذلك في مقابل خطاب دوني يتصف بالبدائية،والشعوذة،والشهوانية،والسحر الطقوسي الخرافي.

•**الدفاع عن الهوية الوطنية والقومية** :رفض كتاب ومثقفو النظرية الاستعمارية الاندماج في الحضارة الغربية،وانتقدوا سياسة الإقصاء والتهميش والهيمنة المركزية ورفضوا كذلك الاستلاب فدعوا في المقابل إلى ثقافة وطنية أصيلة،ونادوا بالهوية القومية الجامعة،ومن هؤلاء كتاب ومبدعو الحركة الزنجية الأفريقية الذين سخروا كل ما لديهم من آليات ثقافية وعلمية لمواجهة التغريب،فتشبثوا بهويتهم السوداء،ودافعوا عن كينونتهم الزنجية الأفريقية،كذلك كتاب الفرانكفونية بالمغرب العربي يحاربون المستعمر بلغته،ويقوضون حضارته بالنقد والفضح والتعرية،مستخدمين في ذلك لغة فرنسية مختلطة باللغات الوطنية تهجينا وسخرية،وقد انعكست الحركة الزنجية على الأدب فظهرت في كثير من الأعمال الأدبية مثل ما نجده عند المبدعين السودانيين:محمد الفيتوري الذي خصص لإفريقيا مجموعة من الدواوين الشعرية والوطنية والقومية،والطيب صالح في روايته موسم الهجرة إلى الشمال،ورواية أشياء تتداعي التي صور بحق الحياة الإفريقية بعاداتها وتقاليدها فأقل ما توصف به أنها إفريقيا تتحدث عن نفسها،في الدراسات النقدية نلفي نادر كاظم في كتابه تمثيلات الآخر صورة السود في المتخيل العربي الوسيط.

•**التعددية الثقافية** :دافع كثير من مثقفي نظرية ما بعد الاستعمار عن التعددية الثقافية،ورفضوا التمركز الثقافي الغربي والثقافة الواحدة المهيمنة،ونادوا بالتنوع الثقافي والانفتاح الثقافي وذلك عبر آليات المثاقفة والترجمة والنقد والتفاعل الثقافي،بمعنى أن ثمة ثقافات جديدة إلى جانب الثقافة الغربية المركزية،كالثقافةالعربية،والثقافةالآسيوية،والثقافةالإفريقية،والثقافة الأمازيغية...بمعنى أن ليس هناك ثقافة مهيمنة وحيدة؛بل هناك ثقافات هجينة متعددة ومتداخلة.

3- الثقافة الزنجية ونقد التمركز العرقي واللوني:

يشير مصطلح الزنوجةLa négritudeإلى أصحاب البشرة السوداء وقد ارتبطت هذه الحركة بتيار ما بعد الكولونيالية الذي كان يهدف إلى تصحيح النظرة الاستعلائية التي كان ينظر منها المستعمر إلى الشعوب المستعمرة و فضح الأيديولوجيا الغربية القائمة على الميثولوجيا البيضاء الواهمة،بذلك كانت الزنوجة كرد فعل يهتم بثقافة الذات الزنجية وبالشخصية الزنجية.

لقد كانت باريس مهد فكرة الزنوجة وموطنها الأصلي حيث جمعت شبانا من إفريقيا وأمريكا توحدهم عدة قواسم مشتركة:اللغة الفرنسية واللون الأسود،التاريخ الاستعماري والإقامة في فرنسا،غير أن لون الجلد كان أبرز هذه القواسم المشتركة لكونه مأساة هذه الجماعة ونقطة تقاطع ماضيهم ومصائرهم وقد تزعم هذا التيار ثلاثة من أبرز المثقفين الزنوج الذين كانوا يواصلون دراستهم في فرنسا:ليوبولد سيدار سنغور *Léopold Sédar Senghor*من *السينغال،وإيميه سيزر* Aimé Césaire من المارتينيك،وليون كونتران داماس Léon-Gontran Damas من غويانا،وكان ايميه سيزر أول من نحت مصطلح الزنوجة سنة 1939 في ديوانه دفتر العودة إلى مسقط الرأس.

فالزنوجة إذن هي تيار أيديولوجي مقاوم ظهر كنوع من صرخة الهوية وشقاء الوعي بالذات والمعاناة التي تكبدها الإنسان الأسود عبر القرون،لذلك فإن اعتراف الذات الزنجية بزنجيتها هو أول شرط لرد الاعتبار لها ورفع مظالم التاريخ عنها وانتقاد كل الأحكام الجائرة ورفض أوهام التحيزات الذهنية الغربية،وتعزيزا لتلك الثقافة المهمشة التي تشكل جزءا من صيغة الذات وهويتها،والتي غيبت بفعل موجهات عنصرية وأيديولوجية متعالية،يقول إيميه سيزار في هذا الصدد:"ماذا قلتُ:الزنوجة؟لم أقلْها لأنني أؤمِن بلون البشرة،لا،لم يكن هذا قصدي،عن حُسن نية من الناس كان كل الناس يعتقِدون أنْ لا وجود إلا لحضارة

واحدة،حضارة الأوربيّين،أما الباقي،فهم همَج،إن مشروع الزنوجة مشروعا ثقافيا بالدرجة الأولى،يسعى إلى رفض صفة التمركز أو التحيز لأي جنس مع الدعوة إلى القيم الإنسانية و التركيز على المظلومين والمضطهَدين في هذا العالم.

انعكست هذه الحركة على الأدب وهذا أمر طبيعي نظرا لتأثير الحياة الاجتماعية على الأديب وأدبه؛إذ انفتحت السرود على الآخر ذي اللون الأسود وما يشوبه من مظاهر الانتقاص والدونية،ولعل ميسم هذه السرود يتساوق مع منظور النقد الكولونيالي الذي يقرؤها بوصفها شكلا من أشكال المقاومة الثقافية للممارسات الاستبدادية،تلك المقاومة التي تهدف إلى التحرر من التصورات الضيقة للهويات لتكفل حق الوجود للمحرومين في عالم مثقل بالقوة والهيمنة والعنصرية وهذا ما نحاول تلمسه في روايتنا المقترحة.

- **رواية زرايب العبيد لنجوى بن شتوان:**

نُشرت رواية زرايب العبيد للكاتبة الليبية نجوى بن شتوان الصادرة عن دار الساقي للنشر والتوزيع بيروت في طبعتها الأولى سنة2016،حيث تتضمن سبعة وأربعين فصلا يقع في ثلاثمائة وخمسين صفحة،وتطرح الرواية موضوع العبودية لتتحدث عن حقبة حرجة وأكثر انحطاطا في تاريخ ليبيا القديم في مدينة بنغازي مسقط رأسها؛إذ تضرب الساردة في متنها الروائي في عمق التاريخ الليبي لتعود بنا إلى ليبيا العثمانية قبيل الاحتلال الإيطالي وأثناءه وتميط اللثام عن تلك الفترة المظلمة زمن الاسترقاق الذي انتهى بعد الاحتلال الإيطالي لليبيا.

زرايب العبيد معطى لغوي مكون من وحدتين لسانيتين تجمع بينهما عملية الإضافة و لفظة زرايب تحيل بديهيا إلى حظائر البهائم لكن كسر أفق التوقع سيتضح مع الانحراف الدلالي بإضافة لفظة العبيد بعدها،وجاءت لفظة زرايب نكرة لتضاعف حجم المعاناة والكرامة الإنسانية المفقودة التي يعيشها العبيد بفعل فاعل بالتالي يظهر العنوان عما يضمره المتن

السردي،فنحن أمام عبيد دون البشر من الدرجة الثانية لم يتمكنوا من انتزاع إنسانيتهم الكاملة حتى بعد إلغاء قانون العبودية بعد الاحتلال الإيطالي وظلوا يعاملون معاملة البهائم لا البشر فما يشير إليه العنوان أن العبد كالحيوان أمرهما سيان فهو مسلوب الإرادة يباع ويشترى يقتل ويجلد دون أدنى شعور إنساني.

ولا يمكن لنا أن نقرأ دلالة هذه العلامة اللغوية زرايب العبيد إلا من زاوية عنصرية بكل ما في الأمر من استفزاز إنساني وحواجز طبقية شديدة الصلابة تنذر القارئ منذ البداية أن ما سيتلقاه هم المجموعة البشرية الأدنى –ومن وجهة نظر استعلائية وعنصرية– التي خلقت لخدمة المجموعة البشرية الأعلى أصحاب البشرة البيضاء،فهكذا و دون خداع ومواربة وبكل شفافية يؤدي العنوان وظيفته الكاشفة للفضاء المكاني بوصفه حيزا للتمييز بين العبيد والأحرار يتقلب فيه العبيد بين نيران البيض ومعاملاتهم الوحشية وأهوال الطبيعة وتقلباتها التي تهدد باستمرار هشاشة الزرائب"الريح حارة أو باردة،عدو آخر للفقراء هنا،لذا عندما يستشعرون الخطر يحزمون ملابسهم وما يستطيعون حمله في صرر ويستعدون للرحيل أو لسكون العاصفة."

وتظل تفاصيل هذا المكان متجلية في الرواية من بدايتها إلى نهايتها بإمعان في التوصيف في مدى وضاعته أين تتجلى ملامح الآخر الأسود في علاقته بالمكان ووضعيته الهامشية في زرايب العبيد معدما منسيا ممرغا تحت جبروت الأسياد في مقابل وضعية السادة وهم منعّمون في ملذاتهم في مفارقة سردية تعج بها محمولات النص:الأبيض/الأسود،القوة/الضعف،الصوت/الصمت،السادة/العبيد،الرفاهية/شظف العيش...

- **رواية الزنجية لعائشة بنور:**

رواية الزنجيّة هي الرواية الأخيرة للكاتبة الجزائرية عائشة بنور،بعد إصداراتها السوط والصدى،اعترافات امرأة،ونساء في الجحيم،وهي توقّع هذه المرّة رواية الزنجيّة،بين دفتي مائة واثنين وتسعين صفحة عن دار خيال للنّشر والترجمة برج بوعريريج سنة 2020،تشير لفظة الزنجي إلى الآخر المختلف لونا وشكلا وثقافة ويحيل في الثقافات العالمية على التاريخ الأسود والمر الذي اضطهدت فيه الشعوب السوداء حين كانت تأخذ كعبيد ورقيق،لكن لفظ زنجي يبدو لفظا عنصريا عنيفا ومهينا،أن تنعت شخصا بالسواد أو الزنوجة فإن ذلك قول مشين وقادح خاصة وأن الإسلام قد حمل إلينا قيم الإخاء الإنساني ومبادئ العدل و المساواة والتسامح واحترام حرمة الإنسان كإنسان مهما كانت لغته أو لونه أو ثقافته أو درجة تحضره،و حرّم هذا التنابز بالألقاب واللمز الذي يحط من قيمة الآخر،ويشير عنوان الزنجية هنا إلى المرأة الملونة التي وقعت بين فكي سلطتين جائرتين:سلطة النوع باعتبارها امرأة وما يندرج تحت هذا النوع من صور التبعية للرجل،وسلطة اللون باعتبارها ملونة ومجمل ما يندرج تحت هذا اللون من صور الضعف والخضوع بالتالي يحمل اللون عبئا آخر مضاعفا تعيشه المرأة الملونة في الثقافات المعادية للسواد،وقد افتتحت الساردة متنها الروائي بنص استهلالي جاء عاكسا للعنوان ولرؤيا الكاتبة في النص وهي تفتح ملفات المسكوت عنه"إلى المرأة الإفريقية والآسيوية المهاجرة من عمق البؤس،الباحثة عن الأمن والرغيف،إلى الطفولة المشرّدة التي تفتش عن الدفء في زمن الإعصار."

تقتحم الرواية عوالم المسكوت عنه فتغوص في عمق جراح الفتاة الإفريقية وهي تتخبط في نفق التقاليد العمياء ودوامة الفقر والجهل والعنف،حيث تبدأ معاناة بلانكا الشخصية المحورية في الرواية بحادثة ختانها هذا الموروث الثقيل الذي فتك بها وببنات جنسها وهن في عمر الزهور،ليغدو الختان أبعد من بتر جزء صغير من جسدها ويتحول إلى اقتطاع جزء

كبير من روحها التي تصبح أسيرة تلك الحادثة وما تركته من ندوب وشروخ تغور في ذاكرتها لتدخل في تأزم نفسي يلازمها طيلة حياتها.

رواية الزنجية هي رحلة البحث عن خلاص نفسي وجسدي هروبا من عذراء إفريقيا التي تحولت رغم ثرواتها إلى مرتع للفساد ومقبرة للأمراض فأصبح المكان مقموعا وشخصياته مقهورة،ولا شك أن عائشة بنور قد تجشمت العذابات وهي تحفر في عوالم مليئة بالحيرة و بالأسئلة الوجودية لأناس لا ذنب لهم سوى أن الطبيعة هي من اختارت لهم لونا مازالت قوى العنصرية تعاديه،لذلك نجد بلانكا تردد مقولة سنغور لأنني سوداء البشرة فأنا جميلة من بداية الرواية إلى نهايتها لتؤكد أن خلاص الزنجي في ذاته وينبع من داخله من هنا نفهم لماذا حملت بلانكا أشعار سنغور صاحب فكرة الزنوجة كتعويذة طيلة الرواية،تعويذة الخلاص الداخلي وهو خلاص قائم على الإيمان بجمال السواد،فبلانكا ليست فتاة سوداء فقط؛بل هي سوداء جميلة شردتها الحروب والأوبئة و ادعاءات الإنسانية الملفقة.

تتقاطع الرؤى النسوية السابقة الذكر في الاهتمام بقضايا البشرة السوداء لتفكك البنى الاجتماعية والثقافية الظالمة القائمة على التمييز الإثني والعرقي والطبقي و التي خلقت مفهوم السادة والعبيد لتتيح للرجال والنساء البيض قهر الملونين من النساء والرجال المختلفين عنهم،كما قامت هذه الرؤى على مبدأ النسوية الملونة لتسليط الضوء على حياة المرأة الملونة المقهورة التي غيبتها حجب الثقافة العنصرية حين جعلت السواد رمزا للعبودية،لذلك فإن هذه الرؤى ترغب في صناعة ثقافة جديدة تقوم على مبدأ المساواة بين الأسود والأبيض و تمزق تلك العباءة البالية التي تقوم على فكرة التفرقة على أساس النوع واللون والطبقة،فيكون هدف هذه النصوص الروائية محاولة الكشف عن الواقع الحقيقي لتلك الفئات المنسية و كيف تحيى في ظل اللاإنسانية،انطلاقا من هذه المعطيات نطرح هذه التساؤلات:هل الإنسان

مسؤول عن لون بشرته أبيضا كان أم أسودا؟هل هو مسؤول عن جنسه ذكرا أم أنثى؟هل هو مسؤول عن جنسيته شرقيا كان أم غربيا؟

بعض المراجع المعتمدة:

-نادر كاظم:تمثيلات الآخر صورة السود في المتخيل العربي الوسيط،دار الفارس للنشر،عمان،ط1،2004.

-عبد الله الغذامي:النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية،المغرب،ط3،2005.